# خلِّصـونا من هـذا «النقـد الذاتي»!

أكثـر مـا نَسْمعـه ، نحن الثورجيين الديماغوجيين، أصحابَ اللغة الخشبـية ، الدونكيـشوتيين القومجيين، هو أنَّنا لا نَنْقد أنفسَنا .

ومهما فَعَلْنا ، سواءٌ نَظَّرْنا لـ«عروبةٍ جديدة ،» أوْ ليسارٍ جديد ، أوْ لاستراتيجيةٍ تَأْخذ في الحسبان المصالحَ القُطْريةَ والتنوُّعَ الإثنيَّ ومخاوفَ الأقليّات وشراسةَ المرحلة . . . مهما فَعَلْنا ، فإنّنا نبقى خشبيين، وفقًا للمعادلات «الليبرالية» التالية :

ـ قومي عربي جديد = إنسان يحاول بثَّ الحياة في البعث الصدّامي والأسَدي وفي الناصرية البائدة ، مستخدمًا شيئًا من الثقافة ( وأمّا القومي العربي «حافْ» فهو ، ببساطة ، صدّامي ، أو عميل سوري ، أو أهبل ) .

ـ إسلامي منفتح = أصولي مُقنَّع ، نيو بطريركي ، أهبل أيضًا ، يحاول أن يَلْحق الزمنَ الصّاروخي بدرّاجةٍ من عجلةٍ واحدة ( وأما الإسلامي ، «حافْ ،» فهو أصولي وإرهابي «حافْ» ) .

ـ يساري جديد = أصولي من نوع آخر ، أهبل من نوع جديد .

ـ ليبرالي = فهيم ، ديموقراطي ، منسجم مع العصر .

ـ يساري ديموقراطي = فهيم أحيانًا ، ديموقراطي أحيانًا ، منسجم مع العصر أحيانًا . . . شرطَ أن يؤيِّد الحريري وشيراك وأوسلو ، ويَشْتم حماس والجهاد وحزبَ اللّه ، ويتفهّم سياسةَ الحزب الشيوعي العراقي الموالية لأميركا .

صدّقوني ، مهما قَرأْنا ، ومهما ترجَمْنا ، ومهما سافرْنا ، فإنَّنا نبقى في أعين أكثر المثقفين الليبراليين «الجُدُد» دقّةً قديمةً ، ما دمنا ننادي بالوحدة العربية والعدالة الاجتماعية وتحرير كامل فلسطين وطرد الاحتلال من العراق الموحَّد .

ومَنْ هم هؤلاء المثقفون الجُدُد ؟

لا ، لا تظنّوا أنّهم ، بالضرورة ، متضلّعون في اللُّغات ؛ فبعضُهم ـ وأنا أعني ما أقول ـ لا يستطيع أن يقول لُمضيف الطائرة بالإنكليزية : «أرغَبُ في سُكّرٍ وحليبٍ لقهوتي ،» مع أنّه ينادي بالعولمة صباحَ مساء . ولا تظنّوا ، بالضرورة ، أنّهم سندباداتٌ أو «أبناءُ بطّوطة» عصرهم ؛ فبعضُهم لم يغادرْ زاروبَ بيته ، إلاّ إذ رافق الرئيسَ الفلاني أو العلاّني لتغطية صحفية ، وبالتأكيد ليس إلى بلادٍ أو مناطقَ صَمَدتْ أوْ نجحتْ في التصدّي للظلم : ڤنزويلا ، كوبا ، كوتشابانبا ، . . . ومع ذلك فهم يصرّون على أنْ لا أفقَ في العالم إلاّ لليبرالية ، ويصرّون على أنّ العالم قريةٌ واحدة ، رغم أنّهم لا يصرّون على وحدة العراق مثلاً !

طيِّب ،كيف نغيِّر أفكارَنا جذرياً ، أيُّها الإخوة ، وخاصةً حين يواصل الأعداءُ ( اسمحوا لنا بهذه التّهمة الخشبية ) عدوانيَّتَهم ، بل ويزدادون عدوانيةً وتآمُراً ؟

مؤخّراً ذكرتْ منظمة هيومان رايتس واتش في ٣ آب ٢٠٠٥ أنّ وزارة الدفاع الأميركية «طَلَبَتْ مبلغ ١,٣ مليار دولار» لإنتاج ألغامٍ أرضيةٍ من نوع جديد ، ذكيّ . ويذكّر أعظمُ مؤرِّخ تقدّميّ أميركي ، هواردْ زِنْ ، بما فعلتْه «الببغاءاتُ الخضراءُ» ( اسمُ الدلّع للألغام المستخدمة في أفغانستان والعراق والبوسنة والصومال وأرتريا وكمبوديا ) للأطفال الذين يتوهّمونها لعبةً فيلتقطونها ، فتنفجر بهم . ويقول ( في مجلة Progressive، عدد أيلول ٢٠٠٥ ) إنّ ٤٠ دولة توقّفتْ عن إنتاج

الألغام، وبقيتْ ١٥ دولة تنتجها ـ وعلى رأسها أميركا التي تَمْلك أكثرَ من ١٠ ملايين لغم! فكيف تريدون أيُّها الإخوة أن تحاربوا هذه الألغامَ حضاريّاً؟ بالحوار؟ بالتفاوض؟ بالاستسلام؟

وتَطْلبون منّا أيضًا، نحن التيُّوس، أن نكفَّ عن تفكيرنا المؤامرتي بحقّ أميركا، وعن اتّهامها بأنّها تَخْدم إسرائيل عبر أوكارِ التجسّس المسمّاة: «سفارات أميركية»! لكنّنا قرأنا مؤخَّرًا مقالاً في نيويورك تايمز (لا مجلة الهدف لا سمح اللّه!) يَذْكر أنّ السفير الأميركي السابق في لبنان، المستر دايڤيد ساترفيلد، قد تجسَّس لصالح إسرائيل بأنْ سَرَّبَ معلوماتٍ «تتعلّق بأسرار دفاعية قومية» إلى موظّف في إيپاك (لجنة الشؤون العامة الأميركية ـ الإسرائيلية)! ونَعْلم أيضًا أنّ السفارة الأميركية في لبنان تخطّط لتشييد مبنًى جديد بين بعبدا واليرزة، وبمساحةٍ تَبْلغ ٧٠ ألف متر مربّع، وبكلفة ١١١ مليون دولار فقط لا غير (السفير، ٢٩ آب ٢٠٠٥). أفلا يحقّ لنا، والحالةُ هذه، أن نَخشى من أن تتوسَّع الأعمالُ التجسُّسيةُ لهذه السفارة مع توسُّعِ مبناها واقترابه من القصر الجمهوري ووزارةِ الدفاع؟

وكيف تُقْنِعُوننا، نحن المؤامراتيين، بأنّ «الهجوم» الأميركي المالي على لبنان، وبخاصةٍ على جمعياته ومؤسّساته الخيرية والتنموية والتربوية، بريءٌ من السياسة؟ لنسمعْ ما يقوله الأستاذ حنّا غريب، رئيسُ رابطة أساتذة التعليم الثانوي، في هذا المجال. فقد صَرَّحَ بأنّ وفد وزارة الخارجية الأميركية في مينيسوتّا (المؤلَّفَ من شخصين يَعْملان في «مبادرة الشراكة الشرق أوسطية» ـ وما أدراكَ ما هذه المبادرة!) أقرّ بأنّ هدفَ تمويلِ «تدريب» الأساتذة اللبنانيين في الولايات المتحدة هو «تحسينُ صورة أميركا لدى شعوب الشرق الأوسط» ـ أميركا القاتلة المحتلّة الغاصبة، لا أميركا إدوارد سعيد وهوارد زِنْ بالتأكيد. طبعًا، النائبة الكتائبية صولانج الجميِّل دعتْ إلى عدم «تسييس الموضوع لأنّ أميركا تساعد الكلّ» (يَظْهر أنّها تَمْلك معلوماتٍ عن تمويل الأميركان لمدارس تُشرف عليها حماس والجهادُ في غزة!). وأما النائب العبقري الآخر فريد الخازن، تلميذُ فؤاد عجمي، فميَّز بين التدريب والمنهج، فرَحَّبَ بالأول ورَفَضَ الثاني، وكأنّ التدريب محكومٌ بألاّ يؤدِّي إلى طلبٍ أميركي بتغيير المناهج الدراسية اللبنانية كما سَبَقَ أن فعل الأميركيون في الأردن وبعضِ دول الخليج!

وربّما علينا أيضًا، نحن القومجيين، أن ننقدَ أنفسَنا، فنتزلَّفَ للقيادات الكردية في العراق لكي يَسْمحوا لنا بوضع أعلام عراقية في أربيل، بل أن يَسْمحوا لنا بالنطق بالعربية (راجع السفير، ١٠ آب). إذ لا يكفي أن ندعو إلى منح الأكراد حقوقَهم اللغوية والقومية، دون منّةٍ طبعًا. ولا يكفي أن ندينَ ممارسات صدّام الهمجيّة ضدّهم. وإنّما علينا أن نرفضَ العروبةَ كلَّها، وأن نمزِّق العلمَ العراقي، وأن نَشْتمَ اللغةَ العربية (والأفضل بلغةٍ أخرى)، لكي نُصْبحَ في عرف المثقفين الإنسانيين الليبراليين مقبولين نوعًا ما، لأنّنا سنكون قد انتقلنا من الحالة الخشبية... إلى الحالة النايْلونيّة أو الپلاستيكية مثلاً.

وعلينا، نحن المؤمنين بالانتفاضة الفلسطينية والعمل العسكري الهادف، أن نصفعَ أنفسنا وأن نهلِّل من فوق السطوح لتحرير غزّة بوصفه إنجازًا من إنجازات أوسلو والتفاوض السِّلْمي، ولا دَخْلَ له بالانتفاضة ولا بصواريخ القسّام على سيديروت ولا بالعمليات «الإرهابية» داخل العمق الإسرائيلي. وعلينا ألاّ نَرْبط بين ذلك الإنجاز (حتى لو كان على مساحة أقلّ من واحدٍ بالمئة من فلسطين وحتى لو كانت المعابرُ الموصلَةُ إلى غزّة ما تزال محتلّةً!) وبين أية مؤامرةٍ إسرائيلية ـ أميركية

محتملة، وإنْ تكاثرت المؤشّراتُ على مثل هذه المؤامرة: كاستخدام إسرائيل هذا الإنجازَ لإنجاح «انفتاحٍ» عربي وإسلامي نحوها، أو كسعيها إلى زرْع بذورِ شقاقٍ فلسطيني داخلي ما بين منطقِ «مواصلة المقاومة» ومنطقِ «بدء الإعمار.»

واستكمالاً لذلك كلّه، فإنّ علينا، كيْ نكون مجدِّدين حقيقيين في أعين الليبراليين، أن نصفّق للرفيق محسن إبراهيم (ما أروعَ لغته بالمناسبة!) حين «ينْقد» تجربةَ الحركة الوطنية اللبنانية، التي كان أحدَ أبرز أركانها، زاعمًا أنّها استسهلتْ ركوبَ الحرب الأهلية، وأنّها حَمَّلَتْ لبنانَ ما لا يُطيقُه من أوزار القضية الفلسطينية. وعلينا ألاّ نتساءل لماذا اكتَشَفَ الرفيق أبو خالد ذلك بعد أكثر من عشرين عامًا من الصمت المطبِق، ولماذا لم يتفادَ ذلك الاستسهالَ وذلك التحميلَ آنذاك حين كان في موقع المسؤولية الفعليّة؟ الأدهى أنّ علينا أن ننسى، مع أنّنا عشْنا وشُفْنا، أنّ الحركة الوطنية اللبنانية بزعامة الشهيد العظيم كمال جنبلاط، حاولتْ كثيراً وقفَ الحرب، وقَدّمتْ برنامجًا إصلاحيّاً متميِّزًا، وحين خاضت الحربَ كانت تدافع عن نفسها وعن هوية لبنان العربية (التي يحاول البعضُ نزعَها اليوم، أيضًا، بذريعة السياسات السورية السيِّئة). وعلينا، أخيرًا، أن نَنْبهر ببلاغةِ الرفيق محسن، فنسكتَ عن عدم استكماله «نقدَه الذاتيَّ» بنقد أمور أساسية في تجربته الغنية مثل: تأييده الأعمى للرئيس الراحل ياسر عرفات، وانحرافِ معظمِ مثقفي منظّمته المناضلة حقّاً (منظمة العمل الشيوعي) اليومَ إلى خدمة الآلة الحريرية والتنظير للتفكيكِ والعولمةِ والمجلسِ الإسلامي الشيعي الأعلى... وإلى الهجومِ على الظاهرة «الحزبإلهية»!

وعلينا أيضًا، نحن المجرمين اللاإنسانيين الرافضين للتجدّد، أن نصفّقَ لإنسانيةِ نوّاب «التيار الوطني الحرّ» حين يُطالبون بالعفو عن جنود جيش لبنان الجنوبي الموجودين حاليّاً في إسرائيل. صحيحٌ أنّنا ميَّزْنا بين العملاء من جهة وأطفالهم من جهةٍ أخرى (بل ميّز حزبُ اللّه بين العملاء وبين زوجاتهم ـ وهو ما أرْفضه شخصيّاً لأنّني لا أُعفي الزوجات من تهمة الخيانة إنْ تَبِعْنَ أزواجَهنّ العملاء)؛ وصحيح أنّنا ميَّزْنا بين مَنْ لجأوا إلى إسرائيل اضطراراً بسبب إهمال الدولة، وبين مَنْ تعاملوا معها عن سابقِ تصميم؛ بل وميَّزنا بين متعاملٍ «عاديّ» (معتّر مسكين؟) وآخرَ حصَل على الجنسيّة الإسرائيلية ويرْتع بالمغانم الإسرائيلية بعد أن عَذَّب المجاهدين... صحيحٌ كلُّ ذلك، لكنَّنا نبقى خشبيين وغيرَ إنسانيين وغيرَ راقين إنْ طالبْنا بمحاكمة المتعاونين مع إسرائيل، حتى لو عَلمْنا أنّ العالم كلَّه (باستثناء ألمانيا المتحضِّرة، ربّما، زيادةً عن اللزوم) رَفَضَ استقبالَهم، وحتى لو سَمَحَ حزبُ الله بعودة الآلاف من عائلات المتعاملين دون أن يمسَّهم بسوء، بل حتى لو حَذَّرْنا ـ مجرّد تحذير ـ من أنّ عودةَ المتعاملين دون أدنى محاكمة تهديدٌ فعليٌّ بسفكِ دماءِ مجاهدين آخرين، رفاقٍ لجهاد جبريل وعلي طليس وغالب عوالي المقتولين بأيدي عملاء لبنانيين لإسرائيل (بحسب معلومات حزب اللّه). ثم إنّنا، نحن الوطنجيين، برفضنا عودةَ العملاء من دون محاكمة، ضدّ «المصالحة الوطنية» حتى لوكان هؤلاء ينتمون إلى أكثر من طائفة (٣٠٪ منهم غيرُ مسيحيين، بحسب جريدة النهار، حامية حمى اللحديين والليبراليين، بتاريخ ٣١ تموز)، وحتى لو تذكَّرْنا بأنّ فكرةَ «الحزام الأمني» في الجنوب فكرةٌ إسرائيليةٌ قديمةٌ لا علاقةَ لها بالحرب اللبنانية (وبالتالي لا علاقة لها بمفهوم «المصالحة الوطنية»)، وإنّما هي متّصلة بحماية حدود إسرائيل. الخُلاصة أنّ علينا أن نرمي بقراءاتنا وذاكرتنا في سلّة الزبالة، فنطالبَ بالعفو عن العملاء... وبسحب سلاح المقاومة في الوقت نفسه؛ ذلك أنّنا لن نكون إنسانيين حقيقيين كاملين إلاّ إذا رأيْنا لبنانَ مستباحًا، أرضًا وبحرًا وجوّاً، ورأيْنا دمَ حسن نصراللّه وإخوانه مُراقًا! (التتمة ص ١٢٠)

سماح إدريس

# خلِّصونا من هذا «النقد الذاتي»!

وأخيراً، لا آخراً، فإنّ علينا، نحن مدّعي الاشتراكية، المتمركسين المُتَلَيْنِنين، أن نهلّلَ للرفيق وليد جنبلاط حين يُعلنُ نَدَمَه على تمنّيه الموتَ لپول وولفويتز في بغداد، بل ورغبتَه في أن يكون مجرَّدَ «زبّال» في نيويورك. وعلينا أن نصفّق له مجدداً حين يُعلِن أسفَه لأقواله تلك، عازياً إياها إلى مرحلة «الانفعال السياسي» (كما قال ذاتَ مساء على شاشة الـLBC). وأيّاً يكن الأمر، فينبغي، كي نكون مَرِنين ممارسين للنقد الذاتي الحقيقي، أن نَلْحق بالرفيق وليد كيفما ذهب، وأن نبرِّر له كلَّ أقواله.

وبعد، فإنَّنا، نحن الخشبيين، نحاول جاهدين أن نستبدلَ خَشَبَنا بالزئبقِ والنايْلون والپلاستيك، عسى أن يكون لنا أنصارٌ (وقرّاءٌ!) جُدُد. ولذا سنسعى إلى خوض غمارِ النقد الذاتي قدرَ المستطاع، ولكنْ شرط أن تقوموا أنتم، أيُّها الليبراليون الإنسانيون الأذكياء، بكشفِ بعض أخطائكم، والاعتذارِ إلى الناس عن مراوغاتكم، بدلاً من أن تَسْتخدموا «النقدَ الذاتي» للحفاظ على مناصبكم أو للعودة إليها (إنْ كنتم سياسيين خاصةً) أو للانتقال إلى مواقع إعلامية مغايرة (إنْ كنتم مثقفين).

❖ ❖ ❖

واسمحوا لي أن أَخْتم بهذه الحادثة الشخصية: كنتُ في شبابي «عضوَ حلقة» في تنظيم قومي يساري فلسطيني (مناضلٍ وشريفٍ حتى الساعة). وكان علينا في نهاية كلّ اجتماع أن نتحدّث عن شيء اسمُه «النقدُ الذاتي.» كان أحد مسؤولي الحلقة يحثّني على ممارسته، من دون أن أجدَ سبباً كافياً لذلك! ثم اقتنعتُ بأنّ أفضلَ إجابة عن أيّ تقصير يُمْكن أن أكون قد ارتكبْتُهُ هو بالعودة إلى جذوري الطبقية. «لماذا لم تستنفرْ معنا البارحةَ يا رفيق ضدّ حركة أمل؟» يسألني المسؤولُ، فأجيبه: «ربما لأنّني بورجوازيّ صغير.» «لماذا لم تَبِع حصَّتَك من المجلةِ الحزبية وإنّما اشتريْتَ كلَّ حصَّتكَ بنفسِك؟» يسألني مجدّداً، فأجيبه من جديد: «أنت تَعْرف، ربما لأنّني بورجوازي صغير.»

ولكنْ ذات يوم مَلَلْتُ من هذه المعزوفة ولم أحسّ أنّني أخطأتُ في شيء: فقد «استنفرتُ» مع الشباب، وعبّأتُ أكياسَ الرمل مثلَهم، وبعتُ بمفردي عشرةَ أعداد من المجلة الحزبية رغم الحرج الشديد الذي سبّبه ذلك لي أمام حلاّقي وبائعِ المناقيش وبيّاعِ العصير «فَهْمان» (الممثّل محمود مبسوط). فرفضتُ أن أمارسَ النقد الذاتي. وفي الأسبوع التالي (من عام ١٩٨٢) اجتاحتْ إسرائيلُ لبنانَ، وفَرَطت الحلقةُ (بالمناسبة لم أترقَّ في مرتبتي الحزبية، ربّما بسبب أصولي الطبقية أيضاً).

بعد زوال الاحتلال عن بيروت، سَرَتْ أخبارٌ تُفيد بأنّ مسؤولَ حلقتي السابق (لا غيره) هَرَبَ من موقعه العسكري! وبعد عشرين عاماً رأيتُه على شاشة «الجزيرة» وقد تبوّأ منصباً في أحد المراكز التابعة لواحدٍ من أكثرِ الأنظمة العربية رجعيةً وقمعاً وتآمراً على القضية الفلسطينية. عندها، كان بودّي أن أتّصلَ به، لَوْ عرفتُ رقمَه، لأقول له:

ـ اسمعْ يا رفيق. صار عندي الآن نقدٌ طويلٌ عريضٌ لذاتي. فقد اكتشفتُ أنّني تيسٌ، وأهبل، وخويِّف. ولكنْ عندي أيضاً نقدٌ أطولُ وأعرضُ... لِذاتِكَ أنتَ، أيُّها العزيز!

سماح إدريس
بيروت